مجلة اللغة العربية وآدابها علمية محكمة
السنة ١٤، العدد ٣، خريف ١٤٤٠هـ
صفحة ٤٢٧ – ٤٤٥

Print ISSN: 1735-9767
Online ISSN: 2423-6187
https://jal-lq.ut.ac.ir/

الدراسة الأسلوبيّة الصوتيّة في أقوال الإمام علي عليه السلام عن العتاب

فاطمه پسنديان[1]*، محمّد جنّتي فر[2]، محمّد حسن معصومي[3]

١. طالبة الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة آزاد الإسلامية، قم
٢. أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة آزاد الإسلامية، قم
٣. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة آزاد الإسلامية، قم

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٧/١١/٨؛ تاريخ القبول: ٢٠١٨/٨/١٣)

الملخّص

إنّ الدراسة الصوتيّة من إحدى مستويات علم الأسلوبيّة، وفيها يحاول الباحث أن يدرس البناء الصوتي من خلال رصد بعض ظواهره مثل: الأصوات المختلفة والتكرار والسّجع والتنغيم وما يتعلّق بالبناء الصوتي. استهدف هذا البحث دراسة أقوال العتاب للإمام علي عليه السلام، في ضوء المنهج الوصفي- التحليلي، مستعيناً الأسلوبيّة الصوتيّة التي تتمحور حول بعض المكوّنات الصوتيّة كالتكرار وتكثيف الأصوات والسّجع والتّنغيم، مع الاستشهاد ببعض خطب نهج البلاغة وحكمه ورسائله. ويقصد هنا بأقوال العتاب، ما وردت من الأقوال للإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة في مجال لتّوبيخ. ومن النتائج الّتي توصّلت إليها هذه الدّراسة أنّ الإمام يخلق بالأصوات المنبعثة عن الحروف جوّاً نغميّاً ليتفاعل معها المتلقي؛ فقد يضفي على الكلام نغماً متزايداً يوحي بشدّة التّوبيخ، وقد يمتزج الإمام عتابه بالأصوات المجهورة والمهموسة، ليعبّر عمّا يختلج في صدره من الحزن والتوجّع. ووصلنا إلى قوّة الترابط والمناسبة بين اللفظ وصوته وبين نوعيّة التّوبيخ؛ فينظر الإمام إلى مخاطب كلامه (المذموم) أوّلاً، وثمّ بمقتضاه، يجري الكلام ويوبّخه مستعيناً بجرس الألفاظ المختلفة، والسّجع في كلامه عليه السلام تابعٌ للمعنى، فكلّما أراد الإمام أن يركز عليها استعان بمقومات السّجع.

الكلمات الرئيسة

الأسلوبية، الدراسة الصوتيّة، العتاب، نهج البلاغة.

---

* الكاتب المسؤول
Email: fateme.pasandide@yahoo.com

Archive of SID
www.SID.ir

مقدمة

إنّ الخطابة في الأدب العربي تعدّ من أهمّ فنون الأدب، وتتمثّل خطب الإمام علي عليه السلام مرحلة من مراحل تطوّر هذا اللّون الفنّي في الأدب العربي. يعدّ نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام من أبرز الكتب الوعظيّة؛ امتاز هذا الكتاب بأسلوبه الذي يختصّ به ولا يدانيه أسلوب آخر. فقد حشد علي عليه السلام طاقة صوتيّة كبيرة في خُطَبِهِ تواشجت مع المعنى في نسيج رائع، حيث تكمن هذه الطاقة الصوتيّة المخزونة في الألفاظ، بما تحتوي من أصوات تختلف في وضوحها السمعي وقدرتها على إبراز المعنى.

أمّا الأسلوبيّة، منهج نقدي حديث يدرس الأسلوب في اللغة حين يمارسه الإنسان، والدراسات الأسلوبية من الدراسات الّتي تحتلّ مكانة متميّزة في دراسات علم اللّغة. «أُستخدم مصطلحُ الأسلوبيّة[1] منذ الخمسينات وأريد به منهجُ تحليل للأعمال الأدبيّة يقترح استبدال الذاتيّة والانطباعيّة في النقد التقليدي بتحليل موضوعي أو علمي للأسلوب في النصوص الأدبيّة» (الخفاجي، ١٩٩٢: ١١). ولعلم الأسلوب اتجاهات مختلفة تستخدم فيها المستويات المتعددة للتحليل اللغوي، منها: المستوى الصوتي، والمستوى الدلالي، والمستوى التركيبي، ومستوى الصورة.

أمّا الأسلوبيّة الصوتيّة، فلهذا المستوى «وظيفة صوتيّة تتمثّل في التمييز بين الوحدات الصوتيّة والكشف عن التغييرات الّتي تنعكس في الدّلالة» (عزام، ١٩٩٢: ١-٥). في الحقيقة، تركز الدراسة الأسلوبيّة الصوتيّة على دراسة الأصوات وتكرارها والتوازيات الصوتيّة والتجمّعات الصوتيّة وغيرها من المكوّنات التي تخلق جوّا موسيقيّا في النظم أو النّثر.

هذا البحث يهدف إلى تحليل بعض الظاهرات الصوتيّة في أقوال الإمام عليه السلام عن موضوع العتاب، الّتي وردت في كتابه الثمين، نهج البلاغة. إنّ الدراسة تتمحور حول المحاور التاليّة، وهي: ١. ظاهرة التكرار: في هذا المجال، يرتكز البحث على تكرار الكلمة ودور الصوت المنبعث عنها في موضوع التوبيخ. ٢. تكثيف الأصوات: ويراد به تركيز الإمام علي عليه السلام على صوت معيّن، لأهداف متنوّعة، كإثارة المذموم وتنبّهه. ٣. السّجع: في هذا الحقل، نبحث عن

1. Stylistics

Archive of SID

www.SID.ir

صوت السجعة وكيفيّة استخدامه لاستقطاب ذهن المتلقي. ٤. التّنغيم: يرتكز البحث على دور جرس الأصوات في شدّة التوبيخ.

سنعمد في هذا المقال، إلى تحليل أقوال الإمام وفقا للمستوى الصوتي، بحثاً عن سماتها الأسلوبيّة الّتي لها التأثير الفاعل في نفسيّة المتلقي.

فرضيّة البحث:

من منظر المستوى الصوتي، لقد تميّز أسلوب الإمام علي عليه السلام في أقوال العتاب؛ فالإمام كعالم الأصوات، حينما يجري الكلام في التّوبيخ، يراعي نغمة الألفاظ وأصواتها متناسبة لموضوع العتاب والمخاطب.

أسئلة البحث:

١. ما هي الخصائص الصوتيّة في أقوال العتاب للإمام علي عليه السلام ؟

٢. ما مدى تأثير نوعية الأصوات في تحسين البيان الخطابي في أقوال العتاب؟

٣. ما هي الأسباب والبواعث الأساسية التي دفعت الإمام عليه السلام إلى التنغيم وتغيير جرس الألفاظ؟

٤. كيف يساعد تغيير الأصوات والنغمات في انتباه المذموم والتأثير على وجدانه؟

وقد خرّجت الدراسة أنّ للصوت أثراً مهمّاً في الإرتقاء ببيان الإمام جمالاً وتأثيراً.

خلفيّة البحث:

لم يتوفّر للباحث أي رسالةٍ جامعيّةٍ أو كتاب خاصّ حول دراسة صوتيّة لأقوال العتاب، ولكن، قد سبق هذا البحث بعض الدراسات والبحوث التي تناولت جوانب من هذا الموضوع؛ وأمّا، من أهمّ هذه الدراسات وثيقة الصلة بالموضوع، المقال «سبك شناسي ادبي نكوهش‌هاي امام علي عليه السلام در نهج البلاغه» للكاتب الإيراني علي نظري؛ هذا المقال نشر في مجلة «پژوهش‌نامه علوي» بطهران في سنة ١٣٩٤ش، الكاتب في هذه الدراسة الأسلوبية، ينهج منهج كتاب «الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم»، فيقوم بالمباحث الأسلوبيّة المختلفة، ولا يختصّ بالتحليل الصوتي فقط، بل يشير فيها إلى المستويات الدلالية والنّحوية والأدبية والصوتيّة. ولكن ما يميّز البحث عن غيره هو أنّ هذا المقال، أوّل بحث مستقلّ يختصّ بالتحليل الصوتي فقط، مستعيناً بمنهج يميّز دون سواها.

وبصورة كليّة هناك بعض الدراسات الصوتيّة والأسلوبيّة الّتي تساعدني في المنهج، نذكر منها:

Archive of SID

www.SID.ir

١. التحليل الصوتي والدلالي للغة الخطاب في شعر مدح؛ ابن سحنون الراشدي نموذجاً، الكاتب: نجيبة عبابو، الرسالة لنيل شهادة الماجستير، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، ٢٠٠٨م.

٢. تحليل بافت متني وبافت موقعيّتي خطبه «نكوهش مردم كوفة» إمام علي عليه السلام، الكاتب: دكتر سيّد اسماعيل حسيني اجداد، المقال بمجلة «مطالعات متون ادبي اسلامي»، مشهد، ١٣٩٥ش.

٣. أساليب البديع في نهج البلاغة؛ دراسة في الوظائف الدلاليّة والجماليّة، الكاتب: خالد كاظم حميدي الحميداوي، رسالة لنيل دكتوراه، جامعة الكوفة، كوفة، ٢٠١١م.

٤. سبك شناسي خطبه أشباح نهج البلاغه، الكاتب: علي نظري، المقال بمجلة «پژوهش‌نامه نهج البلاغه»، همدان، ١٣٩٣ش.

٥. بررسي مقايسه‌اي سبك ادبي وعلمي در خطبه‌ها ونامه‌هاي نهج البلاغه بر پايه معادله بوزيمان، الكاتب: نور الدين پروين، المقال بمجلّة «مطالعات متون ادبي اسلامي»، مشهد ١٣٩٥ش.

٦. مقاربة أسلوبيّة دلاليّة في خطبة الجهاد، الكاتب: سيّد اسحاق حسيني كوهساري، المقال بمجلّة «اللغة العربيّة وآدابها»، طهران، ١٤٣٥هـ.

غير أنّ الباحث، على الرغم من استفادته من هذه الدراسات، فأنّه حاول الربط بين مضمون أقوال العتاب للإمام عليه السلام والأصوات المنبعثة عن الألفاظ وكيفيّة التناسب بينهما؛ والمجال هذا، مجال خصب يتطلّب الكثير من البحوث والدراسات لإكمال المسيرة ووضع القواعد الثابتة للموضوع.

منهج الدراسة ودائرتها:

نهج الباحثون المنهج الوصفي- التحليلي في الدراسة الأسلوبيّة الصوتيّة عند الإمام؛ يسعون إلى دراسة بعض السمات الصوتيّة في مجال التّوبيخ، محاولين كشف تأثير جرس الألفاظ وصوتها في استقطاب ذهن المتلقي.

الأسلوب والأسلوبيّة

الأسلوب لغةً: يقول ابن منظور في لسان العرب: «يقال للسطر من النخيل أسلوب، وكلّ طريق ممتدّ فهو أسلوب، قال: والأسلوب هو الطريق والوجه والمذهب. يُقال: أنتم في أسلوب سوءٍ

Archive of SID

www.SID.ir

ويجمع الأساليب. والأسلوب الطريق نأخذ فيه والأسلوب بالضمّ الفن. يقال أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه، ويقال: إنّ أنفه لَفي أسلوب إذاكان متكبّرا» (ابن منظور، ١٩٨٨: ٦/مادة سلب). ويقول صاحب القاموس المحيط: الأسلوب: الطريق وعنق الأسد والشموخ في الأنف» (الفيروزآبادي، ١٤١٩: مادة سلب).

والأسلوب اصطلاحاً: يقول الجرجاني: «الأسلوب: الضرب من النظم والطريقة فيه» (الجرجاني، ١٩٨١: ٣٦١). أمّا ابن خلدون فيقول: إنّ «الأسلوب هو عبارة عن المنوال الّذي تنسج فيه التراكيب أو القالب الّذي تفرغ فيه، وهو يرجع إلى الصورة التي ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها وهي الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربيّ» (ابن خلدون، ١٣٢٧: ٦٦٦).

أمّا الأسلوبيّة، فهي «"علمٌ" كما يراها بعض الدّارسين الغربيين، أو هي "نقد" أو "فلسفة" أو "نهج"، كما يراها آخرون تقترن دائماً بالأسلوب. فحيثما وجد أحدهما وُجد الآخر، فإذن "الأسلوب والأسلوبيّة"[1] متلازمان» (النحوي، ١٩٩٩: ١٥٤).

المستوى الصوتي (الأسلوبيّة الصوتيّة)

الصوت هو المفتاح الأوّل والشفيرة الأولى لمغاليق النص الإبداعي وهي الديباجة الّتي تظهر وتبهر النّاظر إليها» (ناصر وفيصل، ٢٠١١: ٦٣). وليس يخفى أنّ مادّة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأنّ هذا الانفعال إنّما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرجه فيه مدا أو غنة أو لينا أو شدة وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير مناسبة لما في النّفس. (الرافعي، ٢٠٠٥: ١٨٤)

وتعدّ الدراسة الصوتيّة المحور الأوّل للدخول إلى النصّ الأدبي ومنطلقاً أوليا للغوص في عالمه الداخلي، فيكون الصوت هو الوحدة الأساسيّة للغة، وأصغرها حيث ينبني عليها العمل الأدبي مهما تباينت أجناسه. (ابن زيان، ٢٠١٢: ١٩)

إنّ الباحث الأسلوبي يدرس في هذا المستوى «جروس الألفاظ والحروف وتهتمّ بالنغمة والتكرار وردّ الكلام بعضه ببعض وإشاعة أنواع التوازن المختلفة مثل: توازن الألفاظ والتراكيب والأسجاع وتوازن الفواصل وانضباط القوافي وفقاً للأسلوب الّذي يجعل منها رنيناً

1. Style and stylistic

Archive of SID

www.SID.ir

موسيقيّاً يتجاوز وظيفته الدّلاليّة» (محمود خليل، ٢٠٠٣: ١٥٤). يمكن القول أنّ الباحث في هذا المستوى، يتحدّث عن الظواهر الصوتيّة مثل: الأصوات المختلفة والتكرار والجناس والسجع والتنغيم وما يتعلّق بالبناء الصوتي.

في الحقيقة، «تهتمّ الدراسات الأسلوبيّة بالمستوى الصوتي في شتى مناحي نسيج العمل الأدبي ومكوناته من أصوات وإيقاعات خارجيّة وداخليّة لِما تحدثه من أثرٍ على المتلقي، فإذا سيطر النغم على السامع وجدنا له انفعالاً حزناً حيناً أو بهجة وحماسة حيناً آخر» (أنيس، ١٩٥٢: ١٩).

للدراسة الصوتيّة دور كبير في إبراز الوظيفة الصوتيّة المتمثّلة في التمييز بين الوحدات الصوتيّة، والّتي يترتّب على تغييرها في النظام تغيير في الدلالة، حيث تهتمّ الدّراسة الصوتيّة بالوحدات الصوتيّة من حيث كونها صوامت أو صوائت، كما تهتمّ بتحليل الملامح الصوتيّة كتكرار صوت بعينه والنظر إليه من حيث كونه ساكناً أو متحرّكاً، وبالنظر إلى صفاته من حيث الجهر والهمس وغير ذلك من الصفات. (عزام، ١٩٩٤: ١٣٢)

في الواقع، الأسلوبيّة الصوتيّة تعالج التكوينات الصوتيّة وفق خصائصها المختلفة؛ في هذا المقال، نبحث عن بعض المكونات الصوتيّة الأساسيّة الّتي يتأثّر بها الإمام عليه السلام على نفوس السامعين، منها: تكرار الكلمات وتكثيف الأصوات والسّجع والتّنغيم.

أقوال العتاب للإمام علي عليه السلام

العتاب بمعنى الملامة كما جاء في لسان العرب: «وعاتَبهُ مُعاتَبَةً وعِتاباً: كلُّ ذلك لامه» (ابن منظور، مادة عتب). وأقواله عليه السلام عن العتاب تشمل كلّ ما جاء به الإمام عليه السلام من الخطب والحكم والرسائل في العتاب، فهي: ١. ملامة الدنيا وهي دار الفناء وكلّها للبلاء والابتلاء. ٢. ملامة الكوفيين وجهالتهم؛ فيلوم الإمام عليه السلام أشعث ابن قيس ومروان ابن حكم ومعاويّة وغيرهم. ٣. ملامة النساء؛ فيأتي الكلام في عيوب النساء ونواقصهنّ حسب نظرته عليه السلام.

التحليل الصوتي لأقوال الإمام علي عليه السلام عن العتاب

ألفاظ التوبيخ واللّوم والعتاب والزجر ونحوها، لها كيفيّات صوتيّة في الإلقاء، تدلّ على المعنى المراد؛ يتناول هذا البحث عددا من الظواهر والآليّات الصوتيّة الّتي وقف عليها الإمام عليه السلام في أقواله عن العتاب، لتحديد دور الصوت في عمليّة التبليغ ومدى تأثيره في المتلقي؛ فهي:

Archive of SID

www.SID.ir

التّكرار:

تعدّ ظاهرة التّكرار من الظّواهر الصوتيّة الّتي يمكن أن تؤدّي دوراً بالغ الأهميّة في تعميق الإيقاع الصوتي؛ و«التّكرار مهما يكن نوعه تستفيد منه زيادة النغم وتقويّة الجرس» (الطيّب، ١٩٧٠: ج٢/٥٦٨). قال بعض الباحثين: «التكرار بشتّى أنواعه يُحدث نوعاً خاصّاً من الإيقاع، تستلزمه العبارة، لأغراض فنيّة ونفسيّة واجتماعيّة ودينيّة» (شرشر، ١٩٨٨: ٨٨).

لا يخفى ما للتّكرار من مزايا فنيّة عديدة سواء من حيث تأثيره في المعنى أم من حيث تأثيره في الموسيقى الشعريّة فضلاً عن الدلالة النفسيّة الّتي يستطيع أن يعطيها على النصّ إلى جانب أثره في تقويّة النغم. (طالبي، ٢٠١٥: ١١٥)

يجدر القول بأنّ التّكرار المعتدل يزيد الموسيقى حسناً وجودةً و«ذلك كالموسيقى الّتي تتردّد فيها أنغام معيّنة في مواضع خاصّة من اللحن، فتزداد بهذا التردّد جمالاً وحسناً» (أنيس، ١٩٥٢: ٤١). اخترنا ظاهرة التّكرار موضوعاً للبحث لأنّها تعدّ من أهمّ الظواهر الّتي امتاز بها أقوال وخطب الإمام علي عليه السلام. أمّا بالنسبة لأقوال الإمام عليه السلام عن موضوع العتاب؛ قد كرّر ضمير «كم» في توبيخ أهل الكوفة:

«لا أبا لكم! ما تَنتَظِرُونَ بِنَصرِكم رَبَّكم، أمّا دينٌ يَجمَعُكم، ولا حَمِيَّةَ تُحمِشُكم» (نهج البلاغة، خطبة ٣٩: ٦٤)

قد كرّر الإمام علي عليه السلام ضمير الخطاب خمس مرّات، باعتبار أنّ هذا الضمير يقوى الكلام ويوكده. كأنّ الإمام عليه السلام يريد أن يعدّد على الكوفيين قبيح ما فعلوه وعظيم ما ارتكبوه ولعلّه يريد أن يقول يا اهل الكوفة، إنّ الملامة تستحقّ لكم لقصوركم. وهنا، يجدر بالذكر «أنّ تكرار اللفظ يعني تكرار المضمون الدلالي له ومناوبته في مدد زمنيّة معيّنة، يؤكد هذا المعنى ويزيد التنبّه نحوه» (أنظر: ابن معصوم المدني، ١٩٦٨: ج٥/٣٤-٣٥). ومنه، قوله الآخر:

«إذا دَعَوتُكم إلى جِهادِ عَدوِّكم، دارَت أعيُنُكم، كأنَّكم مِنَ المَوتِ في غَمرَةٍ، وَمِنَ الذُّهُولِ في سَكرَةٍ» (نهج البلاغة، خطبه ٣٤: ٥٨)

في هذه الخطبة، نرى بأن الصوت المنبعث عن تكرار ضمير الخطاب «كم»، يقوى الموسيقى الداخلي في الكلام، وكذلك، ينبّه بالضمير المخاطب (اهل الكوفة). ولاندري لعلّ الإمام أراد أن يعيد المخاطبين على وعيهم بهذا التكرار. في الحقيقة، رسم لنا الإمام عليه السلام من خلال تكرار الضمير المخاطب مشاهد العتاب، وبالتكرار يزيد المعنى قوّةً ويجعل فيه تأثيراً أبلغ في نفس السامع.

Archive of SID

www.SID.ir

ومن شواهده، قوله عليه السلام في توبيخ العلماء على اختلافهم في الفتوى:

«يَجْتَمِعُ الْقُضَاةُ بِذَلِكَ عِنْدَ إِمَامِهِمُ الَّذِي اسْتَقْضَاهُمْ فَيُصَوِّبُ آرَاءَهُمْ جَمِيعا، وَإِلَهُهُمْ واحِدٌ، ونَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ، وكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ» (نهج البلاغة، خطبه ١٨: ٤٢)

قد جاء لفظ «الواحد» ثلاث مرّات، فخلق إيقاعاً منظّماً، وخلق جوّاً نغميّاً ممتعماً فيتفاعل معها المتلقي؛ ولو لم يكن تكراره على هذه الشاكلة، لما استطاع أن يثير إحساساً لدى المتلقي. في الحقيقة أدّى التّكرار وظيفة تداوليّة في تنبيه الغافل أو المدبّر؛ ويقصد بهذا التكرار ترسيخ إشتراكهم (في الله والنبي والكتاب) في نفوسهم وأذهانهم خشية طغيانهم.

ومن التكرار، قوله عليه السلام في ذمّ العاصين من أصحابه:

«قد دارستُكمُ الكتابَ، وفاتحتُكمُ الحِجاجَ، وَعرَّفتُكم ما انكرتُم، وسَوَّغتُكم ما مَجَجتُم، لَو كانَ الاَعمَى يَلحَظُ، أو النَّائمُ يَستَيقظُ» (نهج البلاغة، خطبة ١٨٠: ٢٤٤)

كرّر الإمام عليه السلام عدداً من الضمائر؛ ضمير «تُ» أربع مرّات، و«تُم» مرّتين، و«كم» أربع مرّات. التكرار في هذه الضمائر يعطي النص إيقاعاً رتيباً يثير السامع. يحتمل أن يكون هذا التكرار من أسباب تماسك النص وإضفائه روعة وبهاء. والجدير بالذكر أنّ الإمام لم يستعمل الضمائر وقعا لوتيرة ونسق واحد، بل استعملها مرّة بالمتكلم للوحدة (تُ) ومرّة أخرى بالمخاطبين (كم) وأخرى بـ«تُم»، وهذا درءا للسكون والجمود، وليكسب النص إيقاعاً خاصّاً. فلهذه الظاهرة أثر في إثراء النص، إذ أفادته في توكيد المعنى الذي ألحّ الإمام علي إظهاره.

يقصد بالتكرار في أقوال الإمام عليه السلام عن العتاب، تأكيد المعنى وتقريره في ذهن القارئ كما أنّه يخلق موسيقى جميلة أنيقة ترتاح لها الأذن ويطرب لها القلب.

تكثيف الأصوات (التجنيس الصوتي):

إنّ للصوت تأثيراً ملحوظاً على السامع وهو الوسيلة الموصلة للمعاني إلى آذان المستمعين؛ قد يشيع استعمال صوت أو أكثر من الأصوات في سياق معيّن، ليحمل بذلك دلالة يعمل السياق على إبرازها؛ قوّة الحرف قد تضفي على الكلمة قوّة لايضيفها عليها حرف آخر، وبالتالي فإنّ الكلمات تكتسب قوّتها من خلال قوّة الحروف المستعملة في تركيبها.

تكرار الصوت، ويرادُ به التركيز على صوت معيّن، بمعاودته وتمكينه في بنية النصّ على وفق استعمال مخصوص؛ لأنّ تكرار الصوت يحمل معاني إيحائيّة نفسيّة غامضة لا تتكشف إلّا بعد التأمّل وطول النظر. «تكرار الحروف لايكون قبيحاً إلّا إذا وقعت عليه المبالغة، أو كان المصوّت

Archive of SID

www.SID.ir

المكرّر عسير النطق» (أنيس، ١٩٥٢: ٤١). يمكن القول إنّ تكرار الصوت يعني تكرار سمات معيّنة في امتدادت النص، وهذه السمات سوف تخصص طابع النص باتّجاه موسيقي معيّن.

لقد عمد الإمام عليه السلام في أقواله عن العتاب، إلى تكوين تجمّعات صوتيّة متماثلة أو متجانسة، منها حرف التاء؛ إنّ حرف «التاء» صوت مهموس «وعلى الرّغم ممّا أسند إلى هذا الحرف من الشدّة والانفجار وما وصف بالقرع بقوّة، فإنّ صوته المتماسك المَرِن يُوحي بملمسٍ بين الطّراوةِ واللّيونة» (عبّاس، ١٩٩٨: ٥٦). ويجدر بالذّكر أنّ صوت التاء يلائم النفس البشرية في هدوئها وتمرّدها؛ من نماذج تكرار صوت «التاء» مقروناً باللّيونة:

« يا أهلَ العِراقِ، فإنّما أنتُم كالمَرأةِ الحامِلِ، حَمَلَت فَلَمّا أتَمَّت أملَصَت وَماتَ قَيِّمُها، وَطالَ تأيُّمُها، وَوَرِثَها أبعَدُها»! (نهج البلاغة، خطبه ٧١: ٨٤)

من الواضح، إنّ تكرار الصوت المنبعث عن التاء قد أضفى على كلامه عليه السلام جرساً موسيقيا وحقّق إيقاعاً وتلويناً صوتياً خاصّا. المتتبع لهذه الخطبة يجد بأنّ الإمام عليه السلام يذمّ النّاس ويخاطبهم، وهو يختار كلاماً يكثر فيه صوت «التاء»، وإنّ صوت هذا الحرف يوحي بمزيج من الليونة والمرونة والتماسك. وهذا الحرف يثير في النفس جوّاً يهيّء لقبول المعنى؛ كأنّه في اختيار الالفاظ والأصوات المنبعثة عنها، يهتمّ بمخاطب كلامه، ومخاطبه العراقيون عامّةً ولا الشخص المنفرد المحدّد. وأمّا، فقد يوحي هذا الصوت بالقوّة وينجلي خطابه الشديد؛ كما يقول الإمام عليه السلام في ذمّ أحد الولاة:

« أمّا بعدُ، فَقَد بَلَغَني عَنك امرٌ، إن كنتَ فَعَلتَهُ، فَقَد أسخَطتَ رَبَّك، وَعَصَيتَ إمامَك، واخزَيتَ أمانَتَك، بَلَغَني أنَّك جَرَّدتَ الأَرضَ، فَأَخَذتَ مَا تَحتَ قَدَمَيك، وأكلتَ ما تَحتَ يَدَيك، فارفَع إلَيَّ حِسابَك، وَاعلَم أنَّ حِسابَ اللّهِ أعظَمُ مِن حِسابِ النَّاسِ، والسَّلام» (نهج البلاغة، الرسالة ٤٠: ٣٨٨)

وتكثيف الأصوات (بالتاء) في هذه الفقرات، تشكل إيقاعاً صوتيّاً ويقوّي للإيحاء بأهميّة الموضوع عند الإمام علي عليه السلام. وتتّسم الموسيقى هنا بالقوّة والشدّة المناسبة للمعنى الّذي أراد الإمام علي عليه السلام تصويره وبيانه؛ نرى بأنّه قد جاء بضمير «ت» مرّات وقد جعل صوت «التاء» الصوت الغالب؛ وإن نفحص عن فحوى الكلام وسياقه، فنصل إلى قوّة الترابط والمناسبة بين اللفظ وصوته وبين فحوى الكلام، لإنّ الإمام عليه السلام يخاطب الوالي بالإنذار وينبّهه بأعماله الشنيعة، فيمزج كلام الإمام عليه السلام بالملامة الشديدة؛ لاشك أنّ اجتماع أصوات «التاء» في هذا الكلام، دلالة على تصوير سخط الإمام عليه السلام على ذلك الوالي.

Archive of SID

www.SID.ir

ومن التجمّعات الصوتيّة، حرف «القاف»؛ «هو شديد؛ موحيات الانفجار والقوّة والقساوة والصلابة والشدّة في صوت هذا الحرف. حرف القاف بفقاعته الصوتيّة، هو في الحقيقة من أعجز الحروف عن إثارة المشاعر الإنسانيّة» (أنظر: عبّاس، ١٩٩٨: ١٤٥) نقرأ في قوله عليه السلام:

«أَخْلَاقُكُمْ دِقَاقٌ، وعَهْدُكُمْ شِقَاقٌ، ودِينُكُمْ نِفَاقٌ، ومَاؤُكُمْ زُعَاقٌ، والْمُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مُرْتَهَنٌ بِذَنْبِهِ» (نهج البلاغة، خطبة ١٣: ٥٤)

إنّ الإكثار من حرف «القاف»، وهو حرف شديد الوقع، في أواخر كلمات «دقاق» و«شقاق» و«نفاق» و«زعاق» يناسب جوّ القوّة، يوحي بأنّ الإمام عليه السلام يلوم أهل البصرة لوما شديدا؛ في الحقيقة، استخدام الإمام عليه السلام لحرف «القاف» يؤدّي إلى مزيد من الإتقان الصوتي الّذي ينتهي إلى قوّة المعنى.

ومنها، حرف «الصاد»؛ «هذا الحرف، إنّما هو تفخيم لحرف السّين وصفيريٌّ مثله، إلّا أنّه أملأ منه صوتاً، وأشدّ تماسكاً» (عبّاس، ١٩٩٨: ١٤٩). نقرأ في كلامه عليه السلام:

«كلامُكم يوهي الصُّمَّ الصلاب، وفعلكم يطمع فيكم الاعداء» (نهج البلاغة، خطبة ٢٩: ٥٤)

ينبغي أن ندقّق النّظر في غرض الإمام عليه السلام لاستخدام «الصّاد»: إنّ الإمام عليه السلام يخاطب اهل الكوفة ويذمّهم ذمّا شديداً لإكثارهم في القول (الإدّعاء الكذب) وإغفالهم في العمل؛ وهذا الكلام، يذكرنا قوله تعالى: ﴿**لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ (الصف/٢).

وأمّا بالنّسبة لهذا الحرف في «الصم الصلاب»؛ حرف «الصاد» صفيريٌّ ـ كما قلنا ـ يدل على كثرة الصوت (الضوضاء)، وهذا ما يلائم نوع العتاب في هذا الكلام (العتاب الشديد)؛ لأنّهم يزيدون من أقوالهم لتصوير شجاعتهم، فتملأ أصواتهم آذان النّاس وهذا ما يناسب فحوى كلام علي عليه السلام.

وكذلك، من التجمعات الصوتيّة حرف «الراء»؛ هذا الحرف «مجهور متوسّط الشدّة؛ صوت هذا الحرف يدلّ على ترجيع وتكرار وكذلك، يدلّ على الثبات والاستقرار والربط وضمّ الأشياء إلى بعضها بعضا والإقامة» (أنظر: عبّاس، ١٩٩٨: ٨٥-٨٦).

من شواهدها:

«أَيُّهَا الذَّامُّ لِلدُّنْيَا الْمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا الْمَخْدُوعُ بِأَبَاطِيلِهَا أَ تَغْتَرُّ بِالدُّنْيَا ثُمَّ تَذُمُّهَا» (نهج البلاغة، حكمة ١٣١: ٤٦٦)

Archive of SID

www.SID.ir

إنّ المتتبع للمستوى الصوتي في هذه الحكمة، يلاحظ أنّ «الراء» هو الصوت البارز فيها، واستخدامه في «المغترّ» و«تغترّ» يدلّ على الاستمرار؛ كأنّه يقصد باللفظين، من لايزال يخدع بالدنيا (من لايزال على قيد الخداع)؛ فلذلك، نرى ملائمة مناسبة مع مفهوم التكرار والاستمرار. وأيضا، نقرأ في قوله عليه السلام في ملامة الأشرار:

«هُمُ الَّذِينَ إِذَا اجْتَمَعُوا ضَرُّوا وإِذَا تَفَرَّقُوا نَفَعُوا» (نهج البلاغة، حكمة ١٩٩: ٤٧٨)

يمكن القول أنّ «الراء» في كلمات «ضرّوا» و«فرّقوا» يوحي بالتّأكيد وممّا يزيد في موسيقيهما التّضعيف؛ يعني إنّ الأشرار إذا اجتمعوا خسروا خسراناً وإذا قطعوا وصلهم نفعوا (يعني الخسران في تجمعهم والإنتفاع في تشتيت شملهم). نستنتج أنّ تغيّر أحوال الخطيب وانفعالاته يكون بحسب المعاني الّتي يلقيها على السّامعين؛ كذلك، يمكن القول أن تكرار «الراء» يبيّن غضب الإمام من المخاطب المذموم.

وكذلك، صوت «الراء» في قول الإمام عليه السلام:

«ونَصَبَ للنّاسِ أشراكاً مِن حبائلِ غُرورٍ وقولِ زُور» (نهج البلاغة، خطبة ٨٧: ١٠٤)

ومن هذه التجمّعات الصوتيّة، حرف «الهاء»؛ «إنّ صوت حرف الهاء باهتزازاته العميقة في باطن الحلق، يوحي أوّل ما يوحي بالاضطرابات النفسيّة؛ إنّ الإنسان المنفعل الذي يدخل في حالة يأس أو بؤس أو حزن أو ضياع ولو لعارض مفاجئ، لابدّ أن تنقبض معها نفسه» (العبّاس، ١٩٩٨: ١٩٢).

فيمكننا أن نقول، قد يمتزج عتابه بعاطفة الحزن، فيغلب على كلامه صوت يوحي بالحزن؛ يقول الإمام عليه السلام في صفة الغوغاء:

«يَرْجِعُ أَصْحَابُ الْمِهَنِ إِلَى مِهَنَتِهِمْ فَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِهِمْ كَرُجُوعِ الْبَنَّاءِ إِلَى بِنَائِهِ والنَّسَّاجِ إِلَى مَنْسَجِهِ والْخَبَّازِ إِلَى مَخْبَزِهِ» (نهج البلاغة، حكمة ١٩٩: ٤٧٨)

وهكذا حرف «الحاء»؛ حرف الحاء «مهموس رخو، يحدث صوته باندفاع النّفس بشيءٍ من الشدّة مع تضيّق قليل مرافق في مخرجه الحلقي؛ إذا لفظ صوت الحاء مشدّداً مفخماً عالي النبرة، أوحى صوته بالحرارة، وبأصوات فيها شيء من الحدّة، وبمشاعر إنسانيّة لاتخلو من الحدّة والانفعال» (عبّاس، ١٩٩٨: ١٨٠-١٨١). يسمع في كلامه عليه السلام، صوت «الحاء» كصوت بارز:

«ما لي أراكم أشباحاً بِلا أرواحٍ، وأرواحاً بِلا أشباحٍ، ونُسّاكاً بِلا صَلاحٍ، وتُجّاراً بِلا أرباحٍ» (نهج البلاغة، خطبة ١٠٨: ١٤٠)

Archive of SID

www.SID.ir

كأنّهُ في ملامة الكوفيين، أراد أن يركز على الكلمات الّتي فيها هذا الصوت وبهذا أصبح النص موحيا بالشدّة والتّوبيخ؛ في الواقع، يكرّر الإمام عليه السلام في قوله حرف «الحاء» وهو ذات الوقع الشديد، ممّا أكسب الكلام موسيقى قويّة صاخبة؛ ويمكننا أن نقول: تكرار «الحاء» في هذا الكلام، يعني تأكيد مضمون الكلام الدلالي وهذا ما يؤكد التأثّر العقلي في إثارة التأمّل. نستنتج أنّ هذا الحرف ملائم مع معنى العبارة أي استحقاق المذموم للتّوبيخ الشديد.

فلاشك، إنّ لجرس الأصوات المكرّرة من أثر كبير في تصوّر المعاني وتجسيداً في صور محسوسة وكأنّها مشاهد تنبعث منها أصوات مسموعة.

ومن التجمّعات الصوتيّة حرف «الجيم»؛ حرف الجيم «مجهور؛ في النوعين: الشامي والقاهريّ؛ وفي النوعين يوحي بالشدّة والقوّة والقساوة والصلابة والانفجار» (انظر: عباس، ١٩٩٨: ١٠٤-١٠٥) نرى بأنّ الإمام عليه السلام يكثر منه في ذمّ أصحابه:

«دَعَوتُكم إلى نصرِ إخوانِكم؛ فَجَرجَرتُم جَرجَرةَ الجَمَلِ الأسَرِ» (نهج البلاغة، خطبة ٣٩: ٦٤)

نرى بأنّ الإمام يغلب على ذمّه صوت «الجيم» ملائما لشدّة التّوبيخ؛ في الحقيقة، إنّه يكثر هذا الصوت ليرسم شدّة امتناع الأصحاب عن نصر إخوانهم؛ كأنّ الإمام بصوت كلمة «جرجرة» وجرسها، يعكس بوضوح حالة الممتنع عن تلبيّة الدعوة، مقرونة بالحنين والضوضاء، يسمع عنها الأصوات المختلفة والجلبة.

في نهاية هذا المطاف، يمكن القول أنّ الإمام عليه السلام يعتني بشكل ملفت للنظر باختيار أصوات تترجّم مشاعره؛ وظّف الإمام عليه السلام الأصوات المهموسة ليبيّن الغضب الكامن في قلبه بالنّسبة إلى اللّائمين وأفعالهم الشنيعة. ولذا هذه الأصوات المجهورة أو المهموسة تمنح كلامه موسيقى ونغمة متصاعدة تدلّ على ما يدور في خاطر الإمام عليه السلام.

السّجع:

يعرّف السّجع بأنّه «تواطؤ الفواصل في النثر والشعر على حرف واحد، والأصل فيه الاعتدال في مقاطع الكلام» (ابن أثير، ١٩٣٩: ١٩٣). السّجع كأبسط ألوان المستوى الصوتي يوجد في النثر كما يوجد في الشعر، إلا أنّ وظيفته الصوتيّة تبرز أكثر في النثر، ولعلّ ذلك هو الّذي دفع السكاكي إلى قصره على النثر بقوله: «ومن جهات الحسن الأسجاع وهي في النثر، كما القوافي في الشعر ومن جهاته الفواصل القرآنيّة» (العسكري، ١٩٨١: ٢٨٧).

Archive of SID

www.SID.ir

وممّا تجدر الإشارة إليه في هذا المجال أنّ الصوامت المجهورة في اللغة العربيّة ثلاثة عشر صوتاً كما دلّت عليها التجارب الحديثة وهي الباء والجيم والدال والذال والراء والزاي والضاد والظاء والعين والغين واللام والميم والنون. أمّا الأصوامت المهموسة، فهي اثنا عشر صوتاً هي التاء والثاء والحاء والخاء والسين والشين والصاد والطاء والفاء والقاف والكاف والهاء» (أنظر: أنيس، دون تا: ٢٢).

اختلفت نسبة السجع باختلاف نوع النصّ في نهج البلاغة، وقد حازت الخطب على نسبة عاليّة منه، مقابل قلّة ما ورد في الرسائل والحكم؛ ولعلّ ذلك يرجع إلى أن الخطبة تعدّ فنّ مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته عن طريق مخاطبة الوجدان والعقل، والاعتماد فيها على السمع يكون أكثر. (حميدي الحميداوي، ٢٠١١: ٥)

ومنه قول الإمام في إيقاظ الغافلين:

«ما لي أراكم عن الله ذاهبين، وإلى غيره راغبين» (خطبة ١٧٥: ٢٣٤)

نرى بأنّ صوت السجعة خلق جوّا إيقاعيا يؤثّر في استقطاب ذهن المتلقي؛ إن ندقّق النّظر في البناء الصوتي للفظين «ذاهبين» و«راغبين»، نرى فيهما اجتماع الأصوات المجهورة (الراء والذاء والباء والغين والنون)، فيمكن القول إنّ استخدام الإمام عن هذه الأصوات في بنية السجعة، يجعل المتلقي متفاعلا مع الملامة.

زادت الأسجاع المستخدمة الانسجام الصوتي والنغمي لكلام الإمام عليه السلام:

«فَاتَّقُوا سَكَراتِ النَّعمَةِ واحذرُوا بَوائِقَ النِّقمَةِ، وتَثَبَّتُوا في قَتَامِ العِشوَةِ، واعوِجاجِ الفِتنَةِ عندَ طلوعِ جَنينِها، وظُهورِ كمينِها، وانتصابِ قُطبِها، ومَدارِ رَحَاهاَ تَبدأُ في مَدارِجَ خفيّة، وتَؤولُ إلي فَظاعَةٍ جَليّة، شِبابُها كشبابِ الغُلامِ، وآثارُها كآثارِ السَّلامِ، يتَوارثُها الظُّلمَةُ بِالعُهُودِ أوَّلهُم قائدٌ لِآخِرِهم، وآخرُهُم مُقتَدٍ بِأوَّلِهِم، يَتَنافَسُونَ في دُنيا دَنيَّة، ويَتَكالَبُونَ عَلَى جيفَةٍ مُريحةٍ» (خطبة ١٥١، سجع)

إنّ القارئ المتتبع لخصائص السّجع في هذه الخطبة يجد:

يأتي السّجع بفواصل قصيرة زمناً ويتجلى النغم الصوتي المتميّز حين يتواصل النغم بالنغم، ويتلاحم الإيقاع بالإيقاع؛ كأنّ بقراءة هذه الخطبة بخواتيم فقارها المسجّعة، تتهجّد العواطف وتتقطع الأنفاس. هذه الأسجاع المتلاحقة تودّي إلى قوّة الأداء اللفظي وقوّة الملامة وبها يبلغ النص منتهاه من التأثير ومخاطبة الوجدان.

Archive of SID

www.SID.ir

يبدو بأنّ الإمام توسّل إلى السّجع لانتباه المذموم؛ فهو يبدّل الإيقاع والروي في كلامه المسجّع حتي يثير انتباه المخاطب؛ فنرى اجتماع الأصوات المهموسة مع المجهورة: «النَّعمَةِ/ النِّقمَةِ/ العِشوَةِ/ الفِتنَةِ/ جَنينِها/ كمينِها/ قُطبِها/ رَحَاهاَ/ خفيّة/ جَليّة/ الغُلامِ/ السَّلامِ/ دَنيَّة/ مُريحةٍ». لاشك أنّ اجتماع الأصوات المهموسة مع المجهورة دلالة على حزن الإمام وغضبه.

ويجدر بالذّكر بأنّ السّجع في كلامه عليه السلام تابعٌ للمعنى، فكلّما أراد الإمام أن يركز عليها استعان بمقومات السّجع؛ على سبيل المثال، في بداية هذه الخطبة، يرتكز فحوى الكلام على اللّفظتين «النّعمة» و«النّقمة»، فهما في موضع السّجع.

التّنغيم:

التنغيم لغةً: «النّغمة جرس الكلمة وحسن الصوت في القراءة وغيرها، وهو حسن النغمة والجمع نغم والنغم كلام الخفي والنّغمة الكلام الحسن» (ابن منظور، ماده نغم). وأمّا اصطلاحاً: «ارتفاع الصوت وانخفاضه اثناء الكلام» (حسان، ١٩٧٤: ١٦٤). والتّنغيم، سمة من سمات اللّغة العربيّة، يعني «اجتماع نغمات ضمن مجموعة من الكلمات على صعيد الجملة» (قدور، ٢٠٠٨: ١٦٦).

يقصد بالتنغيم، «التنويع في أداء الكلام بحسب المقام المقول فيه؛ فكما أنّ لكلّ مقامٍ مقالاً، فكذلك، لكلّ مقال طريقة في أدائه تناسب المقام الّذي اقتضاه. فالتهنئة غير الرثاء، والأمر والنهي سطوة وردعاً غيرهما شفقةً، وهما غير التأنيب والتوبيخ، والتساؤل والاستفهام غير النفي وهكذا. (حسن جبل، ٢٠٠٦: ٧)

التّنغيم يؤدّي دوراً هامّاً بين معاني الجمل كالخبريّة والإنشائيّة، فقد تكون جملة خبريّة في المعنى وهي تحتوي على ادوات الاستفهام بيد أنّ للتّنغيم أهميّة عظيمة الأثر في دراسة الأساليب.

ويقع التّنغيم حينما يرفع الإنسان صوته أو يخفضه في أثناء الكلام للدلالة على المعاني المختلفة للجملة الواحدة. (محمود زقوت، ٢٠١٠: ٤٨)

نتحسّس التّنغيم في أقوال الإمام في كلّ العتاب؛ نشير إلي بعض الروافد التنغيميّة البارزة:

«وَتَعَصَّبَ عَلَيهِ لِأَصلِهِ، فَعَدُوُّ اللّهِ إمامَ المُتَعَصِّبينَ، وَسَلَفَ المستكبرينَ، الَّذي وَضَعَ أساسَ العَصَبيَّةِ، وَنَازَعَ اللّهَ رِداءَ الجَبَريَّةِ، وَادَّرَعَ لِباسَ التَّعَزُّزِ، وَخَلَعَ قِناعَ التَذَلُّلِ» (نهج البلاغة، خطبة ١٩٢: ٢٧٠)

Archive of SID

www.SID.ir

ولو أعدنا النّظر في الجمل التي تتألّف منها هذه الخطبة، لوجدنا أنَّ الغالب عليها، الصوت المشدّدة. إنّ كثرة المفردات المشدّدة في هذه الخطبة تمنح المتأمّل فسحة زمنيّة كافيّة لتصوّر كره الإمام من الشّيطان وشدّة غضبه؛ كما نحسّ أنّ لفظة «تعصّب» تصوّر جوّ الإكراه للصعوبة في النطق وكذلك، بقراءة لفظة «ادّرع» ونغمتها نحسّ شدّة حزن الإمام بالنسبة للشيطان المذموم.

في الحقيقة، إنّ جرس الأصوات قد ساعد على ترسيم شدّة التّوبيخ؛ لأنّ الأصوات تخلق بجرسها القوي نوعاً من اليقظة والتنبّه وذلك مايستدعيه فحوى الكلام (التوبيخ). بكلام آخر، قد انتظمت هذه الأصوات في أواخر الجمل، لتزيد من قوّة الجرس ووضوح النغم.

ومن قوله في مواجهة بعض أصحابه، لإمتناعهم في مشاركة الجهاد:

«يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ ولَا رِجَالَ حُلُومُ الْأَطْفَالِ وعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ ولَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً، وَاللَّهِ جَرَّتْ نَدَماً، وأَعْقَبَتْ سَدَماً، قَاتَلَكُمُ اللَّهُ، لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً، وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً، وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً» (نهج البلاغة، خطبة ١٠٨: ١٤٠)

عندما نتأمّل قول الإمام، نحسّ الصوت البارز لحرف المدّ «الف» في كلامه «يا أشباه الرّجال ... ربّات الحجال»، يحدث نغمة تعلو في الكلام لتُفصح النغمة عن أسلوب النداء الّذي يقصد منه التّوبيخ الشديد وتحقير المخاطب. هذه النغمة تثير العقل والوجدان وتدعو السّامع إلى التأمّل في خذلانه. في الواقع، قد زاد في موسيقى الكلام استعمال «الف» في الألفاظ (اشباه/ الرجال/ الأطفال/ ربّات/ الحجال)، والموسيقى في هذه الألفاظ حزينة، وهذا يدلّنا على أنّ أثر الموسيقى اللّفظيّة لايقتصر على الجانب النّغمي فقط، وإنّما يتعدّي ذلك إلى الجانب المعنوي، فهي تُسهم في نقل المعنى بصورة دقيقة، فتحقّق تأثيراً عقليّاً وجماليّاً ونفسيّاً ممتعاً، فيسهّل على المرء أن يحسّ بمعاني الكلام.

في الحقيقة، صوت (الف) هو من الحروف المديّة وهذا الصوت يدلّ على امتداد واتّساع ويعطي الكلام ليونة ويذكرنا بالصيحة الممتدّة؛ هذا الصوت بحضوره القوي باعتباره صوتاً انفجاريّاً، يظهر انفعال الإمام عليه السلام ويبيّن مدى شعره بالغيظ، ويفجّر الانفعالات الكامنة في صدر الإمام عليه السلام على وجه الشخص اللّئيم.

ثمّ في قوله «لوددتُ ... لم أعرفكم معرفة» تعلو نغمة ألفاظه (لاشتمال كلامه على

Archive of SID

www.SID.ir

الأصوات المجهورة) وثمّ تهبط (الأصوات المهموسة)، فتسود نغمة تلائم روح الألم والتوجّع؛ فيلائم هذا اللون من التعبير، الكلام السابق.

ثمّ يستمر الكلام، فهو ينتقي ألفاظه بعناية ويشدّد على مخارجها؛ فجرس اللفظتين «جرَّت» و«أعقبت» يضفي على الكلام نغماً متزايداً يضاف إلى التوكيد. مرّة أخرى، يمتزج كلامه (لقد ملأتم قلبي... غيظا) بالأصوات المجهورة والمهموسة التي توحي بحزن الإمام، فتعلو نغمة الألفاظ وتهبط. ويغضب الإمام مرّةَ أخرى، فيوبّخ على المذموم توبيخاً، فيستخدم فعلاً يثقل على اللّسان النّطق به (جرّعتموني)، فتعلو نغمة ألفاظه.

ويجدر بالذّكر أنّنا نشعر بالاعتدال في سرعة الصوت؛ يعني إنّ الإمام عليه السلام لايتمهل تمهّلاً يصيب السامعين بالملال، ولا يسرع سرعة تمنعهم التدبّر وفهم المعاني.

وكذلك، يجري الكلام في ذمّ أهل الكوفة:

«رَايَةُ ضَلَالٍ قَدْ قَامَتْ عَلَى قُطْبِهَا، وَتَفَرَّقَتْ بِشُعَبِهَا، تَكِيلُكُمْ بِصَاعِهَا، وَتَخْبِطُكُمْ بِبَاعِهَا، قَائِدُهَا خَارِجٌ مِنَ الْمِلَّةِ، قَائِمٌ عَلَى الضِّلَّةِ» (نهج البلاغة، خطبة ١٠٨: ١٤٠)

نرى بأنّ موسيقى هذه الخطبة، تتغيّر بتغيّر الحالة النفسيّة للإمام؛ فتكون النغمة هابطة أو صاعدة وثابتة. حينما نقرأ من بدايتها (راية ضلال قد قامت ...)، نحسّ بأنّ النّغمة تعلو شيئا فشيئا حتى تبلغ أقصاها مع إجتماع الكلمات القوية بالأصوات المجهورة (تخبطكم بباعها)؛ ثمّ تهبط نغمة الكلام بتغيير الحرف الأخير في الأسجاع. في الواقع، يعلو صوت الإمام عليه السلام ثمّ ينخفض قليلاً ويشتدّ تارةً أخرى عندما يصل إلى ما هو محطّ للتّوبيخ.

نلاحظ في الأقوال السابقة، إلحاح الإمام عليه السلام على كثرة الأصوات بين ارتفاع وخفض، ورخاوة وهمس، مثل (لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ ولَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً، وَاللَّهِ جَرَّتْ نَدَماً ...)، كأنّها تخلق طاقة صوتيّة كبيرة وتلاحق هذه أقوال الذمّ مع المعنى في نسيج رائع، وهذه الأصوات أثّرت في إبراز المعنى لوضوحها وقدرتها.

النتائج

وأخيراً يمكن أن نستخلص أهمّ النتائج والأفكار الّتي توصّلت إليها هذه الدّراسة على الشكل التالي:

Archive of SID

www.SID.ir

- إنّ الإمام عليه السلام كعالم الأصوات، فهو في مخاطبة المذموم، يجري الكلام بمقتضاه ويوبّخه مستعيناً بجرس الألفاظ المختلفة.
- فتمثّل الأصوات في أبنية أقوال العتاب معادلاً موضوعيّاً للمعاني المطروحة فيها، يراعي الحالات الإنسانيّة ويناسب مستويات المتلقين. إنّه يخلق بالأصوات المنبعثة عن الحروف جوّاً نغميّاً ليتفاعل معها المتلقي.
- ممّا زاد في روعة البنية الصوتيّة لأقوال الإمام عليه السلام، ذلك الإنسجام التام بين المستوى الصوتي والموقف الذي سيق من أجله؛ فيتنوّع الإيقاع بتنوّع الأجواء المصاحبة له.
- في مستوى التّنغيم، لايسير التنغيم عند الإمام عليه السلام على وتيرة واحدة، بل يتفاوت بين الهبوط والصّعود؛ من المحتمل أنّه قد اتّكأ على التّنغيم لإيصال المعنى إلى المخاطب. إنّه يعلو صوته، فهكذا ينشّط ذهن المخاطب ويدعوه نحو ما يقصد إنجازه.
- إنّ السّجع في كلامه عليه السلام تابعٌ للمعنى، فكلّما أراد الإمام أن يركز عليها استعان به؛ إنّه يخلق بصوت السجعة جوّا إيقاعيا يؤثّر في استقطاب ذهن المذموم.
- ظاهرة التكرار في كلام الإمام عليه السلام تثيرُ قدراً كبيراً من الانتباه؛ إنّه لجأ إلى تكرار الصّوت من الأصوات بكثافة في مواضع معيّنة، كما لجأ أحياناً أخرى إلى ترجيع بعض الأصوات المتقاربة؛ وظّفها الإمام عليه السلام للتعبير عن مشاعره، وبهذه أصبح النص موحيّاً بالشدّة والحزم والترهيب. لقد عمد الإمام عليه السلام في أقواله عن العتاب، إلى تكوين تجمّعات صوتيّة مماثلة؛ وهذه التجمّعات قد توحي بحالات الإمام العاطفيّة حين إداء الكلام، بين الغضب والتوجّع والحزن.

Archive of SID

www.SID.ir

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

نهج البلاغة

١. ابن الأثير (١٩٣٩م). *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*. تحقيق محمّد محيّ الدّين عبد الحميد، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

٢. ابن خلدون (١٣٢٧هـ). مقدمة ابن خلدون. القاهرة: طبعة مصر.

٣. ابن زيان، عبدالقادر (٢٠١٢م). *جمالية الانزياح في القرآن الكريم*. الرسالة لنيل درجة الماجستير، إشراف: عبداللطيف شريفي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان.

٤. ابن معصوم المدني، علي صدر الدّين (١٩٦٨م). *أنوار الربيع في أنواع البديع*. تحقيق شاكر هادي شكر، النجف: [دون مط].

٥. ابن منظور، محمّد بن مكرّم (١٩٨٨م). *لسان العرب*. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

٦. أنيس، إبراهيم (١٩٥٢م). *موسيقى الشعر*. ط ٢، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة.

٧. ـــــــــــ (دون تا). الأصوات اللغويّة. ط ٤، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة.

٨. الجرجاني، عبدالقاهر (١٩٨١م). *دلائل الاعجاز*. بيروت: دار المعرفة.

٩. حسان، تمام (١٩٧٤م). *مناهج البحث في اللّغة*. الدار البيضاء: دار الثّقافة.

١٠. حسين ناصر، ساهر؛ ويوسف فيصل، جلال الدين (٢٠١١م). «المستويات الأسلوبيّة في المملكة السوداء للكاتب محمّد خضير قصّة الشفيع مثالاً». *مجلّة جامعة ذي قار*، المجلد ٦، العدد ٤.

١١. حميدي، خالد كاظم (٢٠١١م). *أساليب البديع في نهج البلاغة؛ دراسة في الوظائف الدلالية والجماليّة*. الرسالة لنيل درجة الدكتوراه، إشراف: مشكور كاظم العوادي، جامعة الكوفة.

١٢. حسن جبل، محمّد حسن (٢٠٠٦م). *المختصر في أصوات اللغة العربيّة*. القاهرة: مكتبة الآداب.

١٣. الخفاجي، عبدالمنعم (١٩٩٢م). *الأسلوبيّة والبيان العربي*. تحقيق محمّد السعدي فرهود؛ عبدالعزيز شرف، القاهرة: دار المصرية اللبنانيّة.

١٤. الرافعي، مصطفى صادق (٢٠٠٥م). *إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة*. بيروت: دار الكتاب العربي؛ الجزائر: دار الأصالة.

١٥. شرشر، محمّد حسن (١٩٨٨م). البناء الصوتي في البيان القرآني. القاهرة: دار الطباعة المحمّديّة.

١٦. الضامن، حاتم صالح (١٩٩٠م). *فقه اللّغة*. بغداد: وزارة التعليم العالي والبحث العالمي.

Archive of SID

www.SID.ir

١٧. طالبي، جمال (٢٠١٥م). «الإيقاع الصوتي في قصيدة "بلقيس" لنزار قبّاني». *مجلة إضاءات نقدية*، السنة ٥، العدد ١٧.

١٨. الطيّب، عبدالله (١٩٧٠م). *المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها*. بيروت: دار الفكر.

١٩. عبّاس، حسن (١٩٩٨م). *خصائص الحروف ومعانيها*. دمشق: منشورات اتّحاد الكتّاب العرب.

٢٠. عبدالمطلب، محمّد (١٩٨٨م). بناء الأسلوب في شعر الحداثة. القاهرة: التكوين البديعي.

٢١. عزام، محمّد (١٩٩٢م). «مستويات الدراسة الألسنيّة». *مجلّة الموقف الأدبي*، العدد ٢٤٩، كانون الثّاني.

٢٢. ـــــــــــ (١٩٩٤م). *التحليل الألسني للأدب*. دمشق: منشورات وزارة الثّقافة في الجمهوريّة العربيّة السوريّة.

٢٣. العسكري، أبو هلال (١٩٨١م). *الصناعتين*. تحقيق مفيد قميحة، القاهرة: دار الباز للطباعة والنشر.

٢٤. الفيروزآبادي، مجد الدّين محمّد (١٤١٩هـ). *القاموس المحيط*. بيروت: مؤسّسة الرسالة.

٢٥. محمود خليل، إبراهيم (٢٠١١م). *النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك*. عمان: دار المسيرة.

٢٦. محمود زقوت، لافي محمّد (٢٠١٠م). *لغة الخطاب القرآني في بني إسرائيل؛ دراسة أسلوبية دلاليّة*. الرسالة لنيل درجة الماجستير، إشراف: خليل محمّد عودة؛ يحيى عبدالرؤوف جبر، جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.

٢٧. النحوي، عدنان علي رضا (١٩٩٩م). *الأسلوب والأسلوبيّة بين العلمانيّة والأدب الملتزم بالإسلام*. الرياض: دار النحوي للنشر والتوزيع.

Archive of SID

www.SID.ir